مخطوطات ومطبوعات

جلوة المذاكرة وخلوة المحاضرة

الصلاح الصفدي من المكثرين من التأليف والمجودين فيه . ومن جملة كتبه مخطوط في الخزانة التيمورية من فروع دار الكتب المصرية هذا الكتاب ، أوله : الحمد لله الذي جعل لسان العرب أفصح الألسن ... قال وبعد فهذه اوراق أودعتها أزاهر ما حضر ذاكرتي ، وأدرج ضمنتها جواهر ما قذفته حافظتي ، عرضت حاصل فكري فانتخبت منه هذه الزبدة ، ورقمته في هذه البرود المحررة ، وأنبته في رباها الزاهرة ، والتزمت ان أورد فيها ما رق معناه وراق لفظه وشق الإتيان بمثله وشاق حفظه . وهذا الاسلوب حافظ عليه اهل الأدب من المتأخرين ، وسلكه اهل الذوق السليم من الناظمين والناثرين ، فجلوا أبكاره المستكنة في حدود خواطرهم ، وأطلعوا أقماره المستجنة في آفاق ضمائرهم ، لأن ما أتوا به أطرى في المسامع وأطرب ، وأسرى في القلوب وأسرب ...

ومقدمة الكتاب في معرفة فنون الشعر والقابها قال ان الشعر إن أثني به على حيّ فهو مديح كقول أبي الطيب في سيف الدولة :

نهبت من الأعمار ما لو حويته   لهنئت الدنيا بأنك خالد

قال ابو الفتح عثمان بن جني رحمه الله تعالى : لو لم يمدحه الا بهذا البيت وحده لكان قد أبقى له ما لا يخلقه الزمان . وقال الشيخ تاج الدين الكندي : ما أجل هذا البيت وأحسنه ! مدح في مدح ، تركب من وجهين بلفظ جزل لطيف ، وذلك انه بنى البيت على ذكر انه استباحه من المادية ، ثم تلقاه في آخره بسرور الدنيا يبقائه واتصال أيامه .

وإن أثني به على ميت فهو رثاء وتأبين كقول التميمي في ابن زياد :

ردت صنائعه عليه حياته   فكأنه من نشرها منشور

قال بعض الأفاضل ما مات من قيل فيه مثل هذا البيت .

ولو ذكر فيه لؤم او جبن او بخل او ماهو ملحق بذلك فهو هجاء كقول بعض العرب[1] :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهم بولي على النار

زعم بعضهم انه لم يسمع أشد هجواً من هذا البيت وذلك أنه وصفهم بالبخل من كون نارهم تطفأ لئلا يهتدي الأضياف الى طلب قراهم ، ثم انه بالغ في وصفهم بشدة البخل ، لأنهم يطفئون النار ببول أمهم ، حرصاً منهم على الماء . ثم انه وصفهم بالجبن والكسل ، لأنهم يتركون أمهم تتولى خدمتهم ليلاً ، ولم يأنفوا من ذلك ، ثم انه وصفهم بالعقوق ، وقلة الأدب إذ يخاطبون والدتهم بمثل هذا الخطاب السفيه ، ثم انه وصفهم بالقلة والصعلكة بحيث ان نارهم في القلة الى غاية تطفأ ببولة المرأة ، وقد تكلف بعضهم واستنبط منهم أشياء أخر بعيدة التأويل اضربت عنها . ولو ذكر اخلاف وعد ومطل وقلة وفاء وامثال ذلك فهو عتاب . والكتاب كله على هذا النحو وهو في ٢٠٣ صفحات صغيرة .

محمد كرد علي

(١) هو الأخطل (الديوان طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت ص ٢٢٥)

الذخيرة لابن بسام

كتاب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة جزيرة الأندلس من اشهر كتب الأدب في الغرب ، فهو ككتاب يتيمة الدهر للثعالبي في الشرق ، وضعه صاحبه ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني المتوفى سنة ٥٤٢ هـ وكان اماماً في الصناعتين صناعة النظم وصناعة النثر . والكتاب يحمل صفحات اطالت حجمه ، ولكنها ابانت عن اقتدار المؤلف وايثاره الاستقصاء ، وثبت بها ان اهل الاندلس ما كانوا يقلون عن اهل الشرق بأدبهم الذي تقرأ فيه طابعهم .

وقد حمل هذا الجزء الأول ترجمة المستعين بالله سليمان بن الحكم والمستظهر بالله وابن دراج القسطلي وعلي بن حمود وابن برد الاكبر والوزير عيسى بن سعيد القطاع وعبد الوهاب بن حزم والفقيه ابي محمد بن حزم ومنذر بن يحيى التجيبي وابن شهيد وابن الاقليلي وابن زيدون وابن حناط الكفيف وغير ذلك من الحوادث السياسية . واستوفى تراجم الأمراء الفصحاء والشعراء والأدباء والعظماء .

ومن مطالعة هذا السفر يتجلى الأدب الأندلسي كل التجلي . ويعرف بما نقل المؤلف في كتابه عرضاً ان حملة الأقلام واعلام الشعراء كانوا يتأدبون بآداب الأقدمين والمحدثين من العرب ، وكانت معرفتهم ثاقبة بأدب كل من نبغ في عصرهم في الشرق . وقد تسقط لأدبائهم على آراء غريبة ، ولا عجب فطابع كل ادب مقتبس من بيئته ، ولهذا كان ادب الأندلس غير ادب بغداد ودمشق والفسطاط .

من ذلك ما رواه ابن بسام للوزير عامر بن شهيد : « واصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب واستيفاء مسائل النحو بل بالطبع مع وزنه من هذين ، ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه ، فمن كانت نفسه في اصل تركيبه مستولية على جسمه ، كان مطبوعاً روحانياً يطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها ، وأروق لبناتها ، ومن كان جسمه مستولياً على

نفسه — من أصل تركيبه — والغالب على حسه ، كان ما يطلع من تلك الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في الكمال والتمام وحسن الرونق والنظام . فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأتي منه في حسن النظام ، صور رائعة من الكلام ، تملأ القلوب ، وتشغف النفوس ، فاذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده ، ولجمال تركيبها أساً لم تعرفه ، وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير حسن (ص ١٩٧) .

وقال ابو عامر (٢٠٢) : « وكما أن لكل مقام مقالاً فكذلك لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة وضرب من البلاغة ، لا يوافقها غيره ، ولا تهش لسواه ، وكما أن للدنيا دولاً ، فكذلك للكلام نقل وتغاير في العادة ، ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الأول في هذا الفن الى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم من أهل البيان ، فالصنعة معهم أفسح باعاً ، وأشد ذراعاً ، وأنور شعاعاً ، لرجحان تلك العقول ، واتساع تلك القرائح في العلوم . ثم دار الزمان دورانا ، فكانت إحالة أخرى الى طريقة ابراهيم بن العباس ومحمد بن الزيات وابني وهب ونظرائهم ، فرقّت الطباع ، وخف ثقل النفوس . ثم دار الزمان فاعترى اهله باللطائف صلف ، وبرقة الكلام كلف ، فكانت إحالة أخرى الى طريقة البديع وشمس المعالي وأصحابهما . »

لا جرم ان حرص الاندلس على الأخذ من الشرق وأدبه ، ووقوفه بالمرصاد لمراقبة حركته العلمية كان من الخير للأدب ، مثال من ذلك صغير ، ولكنه يدل على أمر عظيم ، قال ابن بسام : (٣٦٥) وكان ابن جهور كسر دنان الخمر ، وكان مدحه أيضاً يومئذ بمثل ذلك عبد الرحمن بن سعيد المصغر بشعر أوله :

كسرت لجبر الدين أوعية الخمر فأحرزت خصل السبق في الكسر والجبر
عمدت الى الشر الذي جمعوا له ففرقت منه ، فاسترحنا من الشر

في أبيات غير هذه استبردتُ جملتها ، وانما ذهب الى عكس قول من تقدم من عُباث الشعراء من ذم صبّ الشراب ، ومن أشهره قول بكر بن حارثة الكوفي ، وقد رأى من سلطان وقته مثل ذلك فقال :

يا لقومي مما جنى السلطانُ لا يكن للذي أهان الهوانُ
سكبوا في التراب من حلب الكر م عُقاراً كأنها الزعفرانُ
صبها في مكان سَوْء ، لقد صا دف سعد السعود ذاك المكان
من كميت يبدي المزاجُ لها لؤ لؤ نظم والفصل فيها جُمانُ
فاذا ما اصطبحتها صغرت في القـ ـدر عندي من أمه الخيزران
كيف صبري عن بعض نفسي وهل يصـ ـبر عن بعض نفسه الانسانُ !

وبلغني أن الجاحظ أنشد هذه الأبيات فقال للمنشد : « من حق الفتوة أن اكتبها قائماً ، وما أقدر الا ان تعمدني » لنقرس كان به . قال المحدث : فعمدته وقام فكتبها . »

ومن ذلك قطعة ظفر بها ابن بسام لسليمان بن الحكم الأموي الذي بويع بالخلافة سنة اربعمائة « عارض بها هارون الرشيد » فتشعشعت بها الكؤوس ، وتهادتها الأنفاس والنفوس ، قال هارون الرشيد :

ملك الثلاث الآنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكانِ
مالي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن ، وهنّ في عصياني !
ماذاك إلا أن سلطان الهوى — وبه قوين — أعز من سلطاني

فقال سليمان المستعين :

عجباً يهاب الليث حد سناني وأهاب لحظ فواتر الأجفان
فاقارع الأهوال لا متهيباً منها سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسي ثلاث كالدمى زُهرُ الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظري من فوق أغصان على كثبان

هذي الهلال ، وتلك بنت المشتري حسناً ، وهذي اخت غصن البان
حاكمت فيهن السلوّ الى الصبا فقضى بسلطانٍ على سلطاني
فأبحن من قلبي الحمى وتركنني في عزّ ملكي كالأسير العاني
لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى ذلُّ الهوى عزٌّ وملك ثاني
ما ضرّ أني عبدُهن صبابةً وبنو الزمان وهن من عُبداني
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى كلفاً بهن فلست من مروان . »

ومن فوائد هذا الجزء ما صدر عن المظفر بن ابي عامر بقلم ابن برد الأكبر من كتاب يدل على مبلغ حرص الاندلسيين على اللغة وجمال الخط والوضع قال في معنى استكتاب الجهلة (٨٧) (... فلم يبلغ ان يُحكم الخط فيقيم حروفه ، ويراعي المداد فيجيد صنعته ، ويميز الرَّق فيحسنَ اختياره ، وعَجزُه الحزم النافذ والحكم الصادع ، بان يكون صدور كتب الاعتراضات وعنواناتها وتواريخها والاعداد في رؤوس رسومها ، بخطوط أيدي القواد والعمال ، من كان منهم كاتباً فبيده ، ومن لم يكتب فبخط كاتب له معروف ، وان تكون تسمية طبقات الأجناد فيها بينة الحروف قائمة الخطوط ... على أنه إن ورد لأحد من الخدَمة بعد وصول ذلك العهد اليه كتاب اعتراض او عمل في رَق رديّ ، أو بمداد دنيّ ، او خط خفيّ ، فيه لحن ، او كتاب على بشر في عدد ، او رأس رسم ما لم يخفَ او يقع في حشو الكتاب ويعتذر منه ، ليبطلن سعي كاتبه فيما كتب ، وليعاجلن بعقوبة العزل واغرام المال الثابت عدده في ذلك القنداق ... وان قوماً من خدمة الحضرة قد عادوا لما نهوا عنه فكتبوا الخط الدقيق في دنيّ الرَّق دقةً من هممهم ودناءة في اختيارهم ، وجهلاً بأن الخط جاه الكتاب وسلك الكلام ... وانا أعطي الله عهداً لئن ارتفع اليّ — بعد بلوغ عهدي هذا اقصى حدود المملكة وانتهائه أبعد أقطار الطاعة — كتاب على الصفات المذمومة ، والاحوال المسخوطة ، من رَقّ او مداد او خط لأوفينّ لصاحبه بما قُدّم اليه من الوعيد . »

قسم المؤلف كتابه أربعة اقسام : قسم لاهل قرطبة وما صاقبها ، وآخر لأهل الجانب الغربي من مدن الأندلس ، وذكر اهل اشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومي ، والثالث اهل شرق الاندلس ، واستوعب القسم الرابع من طرأ على جزيرة الاندلس من مشهوري الآفاق ممن نجم في عصره بافريقية والشام والعراق . واعتمد على ما كتبه ابن حيان مؤرخ الأندلس المعظم في الحوادث السياسية واقتصر على ما كان من شعر معاصريه ، ولم يعرض لمن كان قبله لأن من سبقه من المؤلفين وضعوا لذلك الكتب فلم يجب ان ينازعهم .

تصدى المستشرق الفرنسي ليفي پروفنصال للبحث عن الكتاب واختار مصر لنشره ، فألف القسم العربي في كلية الآداب من جامعة فؤاد الاول لجنة من طلابها النابهين تعد الكتاب للنشر ، ثم تعرض اعمالها على لجنة قوامها اصدقاؤنا الاساتذة الدكتور طه حسين بك واحمد امين بك والشيخ مصطفى عبد الرازق باشا والسيد عبد الحميد العبادي والدكتور عبد الوهاب عزام والسيد ليفي پروفنصال ، فخدم الكتاب بذلك اجل خدمة ولم تقع فيه غير هنات قليلة لا يخلو منهـا كتاب قديم يراد احياؤه على الطرائق العلمية الحديثة .

وكان السيد پروفنصال اطلعني على بعض تعاليق على هذا السفر وضعها بالفرنسية على عادة علماء المشرقيات منذ القديم ، وكانوا يضعون ملاحظاتهم على ما يحبون نشره من كتبنا بلغاتهم الغربية ، وأصبحوا منذ عهد قريب يجعلونها بالعربية لغة الكتاب ، فطلبت اليه أن يكتب ملاحظاته بالعربية ، ولفت انظار لجنة نشر الكتاب الى ذلك فوافقوا على رأيي ، ولطالما لاحظت على بعض العلماء المستعربين من الغربيين في هذه المجلة ، كلما نشروا كتاباً لنا وجعلوا مقدمته وحواشيه بلغاتهم ، ذاكراً لهم ان الكتاب لا تتناوله أيدي المستشرقين فقط ، بل أيدي ابناء العرب ، ومنهم من لا يحسن اللغات الاوربية ، فكتابة التعليقات بغير لغة الكتاب الاصلي ضرب

من العنت يحرم بها قسم عظيم من الراغبين في الاستفادة من الكتاب ، وكان الاستاذان ريتر ونيبرغ هما اللذان سنا هذه السنة الحسنة للمستشرقين فجعلا ملاحظاتها ومقدماتها بالعربية على ما نشرا من الامهات ، ومنها الوافي بالوفيات للصفدي ومقالات الاسلاميين واختلاف المصلين لابي الحسن الاشعري والانتصار للخياط ·

وقد وعد المقدم للكتاب الدكتور طه حسين ان يصدر الكتاب في مجلدات ثمانية لكل قسم من أقسامه مجلدان ثم تصدر اللجنة بعد تمامه مجلدين احدهما يشتمل على فهارس في موضوعات الكتاب وما فيه من الاعلام والثاني يشتمل على ملاحظات مفصلة تمس النص وتتصل بالنسخ المختلفة وبالمراجع التي يرجع اليها المؤلف في تأليفه ورجع اليها المصححون في تصحيحهم وعلى معجم الالفاظ والاصطلاحات الاندلسية التي لا توجد او لا توجد الا قليلا في كتب الشرق ، فنرجو لهم اتمام هذه الامنية ونشكر لجامعة فؤاد الأول عنايتها باحياء هذه المعلمة الاندلسية على نفقتها وللجنة التأليف والترجمة والنشر على طبعها لها في مطبعتها على المثال المتقن الذي عودتنا عليه من اصدار مطبوعاتها النافعة ·

محمد كرد علي